مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 4 السنة: 2022
ص: 373 - 393 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

صورة الأمّ في رواية أمّ سعد لغسان كنفاني بين الواقعيّة والتّخييل السّردي

The image of the mother in the novel of umm saad by Ghassan Kanafani between realism and narrative imagination

د. زليخة ياحي *
Dr. Zoulikha Yahi
جامعة الجزائر 02 (الجزائر)،
University of Algiers 02 (Algeria)
Zoulikha.yahi@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/10/22	تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص البحث

تهدف هذه الدّراسة إلى تسليط الضّوء على صورة الأمّ الكنفانيّة، في رواية أمّ سعد، وذلك باعتبار أنّ الشّخصيّة الأنثويّة حظيت باهتمام الأدباء على اختلاف مشاربهم فشغلت مساحة في نتاجاتهم الأدبيّة، كما أنّ أغلب البحوث ركّزت على حضور المرأة بشكل عامّ في النّصوص الرّوائيّة، على اختلاف مستوياتها الثّقافيّة والحياتيّة، فانطلقنا من كون هذه الشّخصيّة في هذا العمل حقيقيّة استوحى الكاتب من خلالها أحداث نصّه الإبداعي، فألهمت قريحته الأدبيّة تصوير جوانب من الثّورة والمقاومة الفلسطينيّة، والحياة في مخيّمات اللاّجئين اللّبنانيّة، لتظهر الأمّ حاملة لصورة متوهّجة ذات أبعاد زاوجت بين الواقعيّة، والتّخييل السّردي فكانت بحقّ منبعا أسّس لوقائع مشحونة بطاقة فنّية ثريّة.

الكلمات المفتاحية : واقعيّة، تخييل سردي، صورة، أم، غسان كنفاني.

Abstract:

This study aims to shed light on the image of the Kanafani mother in Umm Saad's novel, given that the female character has received attention from writers of various backgrounds and occupied a space in their literary productions, and the majority of research has focused on the presence of women in narrative texts in general, regardless of their differences. It's cultural

* زليخة ياحي zoulikha.yahi@univ-alger2.dz

and life levels, so we proceeded from the fact that this character in this work is real, through which the writer was inspired by his creative text's events. His literary reading inspired the depiction of aspects of the Palestinian revolution and resistance, as well as life in Lebanese refugee camps, to show the mother bearing an image of glowing reality. It was a well-known source of facts infused with a rich artistic energy.

Keywords: Realism, Narrative Fiction, image, Mother, Ghassan Kanafani .

مقدّمة:

لطالما أسالت تيمة الأمّ الحبر، وكتبت فيها القصائد والأعمال، هذا الفيض الزّاخر من الحنان، والنّبع المعطاء في كلّ آن، على امتداد الأزمنة والمكان عدّ مادة يستلهم منها المبدعون مواضيع إبداعاتهم، كما شكّلت الشّخصيّات النّسائيّة في المتون الرّوائيّة نماذج للبحوث والدّراسات، غير أنّ نموذج الأمّ كان المتميّز، على الرّغم من كونه تراوح بين الحضور والغياب باختلاف النّصوص، ورؤى الكتّاب واهتماماتهم، ولا يمكن الجزم إلاّ بكون حضورها يضفي على الأحداث سمة سواء مثّلت المركز أو الهامش، فهنا براعة الكاتب والمبدع تلعب دورها في انتشالها من غياهب النّسيان، والأفول لترفعها إلى مقام النّور والحضور. ليبقى دور الأمّ متراوحا بين فرض الوجود في الأحداث، أو العكس؛ حيث يتضاءل ليكون على هامش الوقائع لتكون سانحة تسمح ببروز شخصيّات أخرى على الواجهة.

غير أنّ ما يلفت الانتباه في حظوة الأمّ في الكتابة –رغم كونها تحمل تلك الصّورة المشرقة، والتّي تسبح في فضاء المثاليّة من جهة، والواقع من جهة أخرى– إنّ أغلب الكتّاب يستحضرون الجانب الشّاعري والجمالي فيها، بغضّ النّظر عن وجود استثناءات، وبين الإقبال على شخصيّة الأمّ والعزوف عنها في الرّواية تتشكّل صورتها على تعدّد زواياها، وفسيفسائيّتها، على أنّ ما يهمّ الرّوائي هو فاعليّتها الفنّية في المتن الرّوائي.

لتبقى تيمة الأمّ في الكتابة الأدبية متعدّدة الحضور، استنادا إلى طبيعة الدّور المنوط بها، وعلى هذا الأساس انبنت هذه الدّراسة وتأسّست رغبة في الوقوف على صورة الأمّ عموما في الكتابة الأدبيّة، والكنفانيّة على وجه الخصوص في رواية: أمّ سعد، وهذا في محاولة للإجابة على الإشكاليّة الأساسيّة: كيف تبلورت صور الأمّ عند غسان كنفاني؟ وهل اعتنى الكاتب برسم شخصيّتها أم أنّه اهتمّ على

حسابها بالجانب السّردي، وبناء الأحداث؟ وما دامت شخصيّة أمّ سعد حقيقيّة استلهمها الكاتب لكتابة روايته كيف انتقل بها من الواقعيّة إلى رحاب التّخييل السّردي؟ وغير ذلك من الأسئلة الّتي تطرح نفسها في هذا المضمار.

وما ألفيناه من بحوث ودراسات في هذا الموضوع قليلة جدّا؛ فأغلبها ركّزت على حضور المرأة، وصورتها المبثوثة في مختلف الأعمال الأدبيّة، لكنّها لم تقف عند شخصيّة الأمّ في عمل قائم بذاته يسلّط الضّوء على جوانبها، أو على الأقلّ يركّز على الإشعاعات المنبعثة من صورتها على غرار دراسة أدهم شرقاوي الموسومة: الأمّ في أدب غسان كنفاني، ومؤلّف: المرأة في الرّواية الفلسطينيّة لحسان رشاد الشّامي، وكتاب: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة لحسين مناصرة.

وهكذا تظلّ مكانة الأمّ محفوظة في واقع الحياة، وفي القلوب والفكر، وكذلك في الأدب الّذي شهد تجسيدها فنّيا وتصويرها خياليّا من زوايا كثيرة تتنوّع بتنوّع وجهات المبدعين، والوقائع المسرودة، وقد اعتمدنا في هذه الدّراسة على آليّات منهجيّة فرضتها سيرورة البحث، نظرا لمكانة الأمّ، فكانت رواية أمّ سعد سبيلنا في ذلك لتحديد صورتها كونها شخصيّة حقيقيّة قفزت من أرض الواقع إلى الخيال الإبداعي، فمثّلت مادة خام، وحقلا خصبا لاستظهار صورتها.

وقد تواشجت توليفة من المناهج اعتمدناها في تأسيس ركائز هذا البحث كالمنهج الوصفي الّذي وقف عند ملامح هذه الشّخصيّة، بالإضافة إلى مقولات المنهج النّفسي الّذي يرصد دواخل الشّخصيّات، وهذا حال المنهج الاجتماعي؛ حيث مكّننا من التّعرّف على طبيعة الحياة الفلسطينيّة في ظلّ الثّورة، والعيش في المخيّمات والملاجئ، وذلك من خلال وقائع هذا العمل الأدبي. كما أنّ هذا لم يمنع اعتماد مناهج أخرى تضافرت جميعها لتستجلي صورة الأمّ الكنفانيّة بين الواقعيّة والتّخييل السّردي.

1- الكتابة الأدبيّة بين الواقعيّة والتّخييل السّردي:

إنّ النّتاجات الأدبيّة برمّتها تتبلور من مادة هي " المضمون أو المحتوى، وصورة هي الّتي تبرز ذلك المضمون، ثمّ الغرض والمغزى أو ما يسمّى وظائف الفنّ وغاياته" [1]، ولولا الصّورة الأدبيّة لما تمكّن الأديب من ترجمة ما يختلج في صدره، من معان أو مشاعر، ولما تمكّن من نقل ما يحدث في الواقع، من خلال الاستعانة بملكة الخيال والتّخييل الّتي تلعب دورا كبيرا في النّصوص الأدبيّة، وبلورة أحداثها؛ بحيث تتواشج مع الواقع فيتمّ حبك وقائع تنتج عن متخيّل يتنوّع بين زاويتين؛ الواقع والخيال؛ ذلك أنّ العمليّة الإبداعيّة تتأسّس على هاتين الرّكيزتين، ويبقى التّخييل هو: "إنتاج تفاعلي جمالي بين الشّاعر والمتلقّي يتمخّض عنه

وعي جديد بالعالم والأشياء، مغاير في الطّبيعة الإدراكيّة للوعيين الحسّي والعقلي"[2]، هنا يلعب المتلقّي دورا بارزا في إنتاجيّة النّص.

ولأنّ الرّواية سرد ينبني على كونه عمل تخيّلي تمثّل الواقع من منظور فنّي؛ فإنّه يمكنها من تقديم الإثارة الأدبيّة عن طريق اللّغة، والنّصوص الأدبيّة تتأسّس على الخيال بالدّرجة الأولى؛ "فكلّ فلذة من الأدب تكتسب أدبيّتها بقدر ما تحتلّ من رقعة الخيال، فأشكال الأدب – في حقيقة الأمر إنّما هي قطع في خيمة التّخيّل، قد تطول أو تقصر، ترتفع أو تنخفض تتجلّى في ألوان بهيجة أو باهتة، لكنّها – كي تصبح أدبا –لا بدّ من تغطيّة سطح الواقع، وهي تضع طرفا من سمائه"[3]؛ فالمغامرة السّرديّة يتعالق فيها الواقع مع الخيال، و" لأنّ التّخيّل هو أجمل مظهر في إنسانيّتنا، فإنّ تحريره وتنشيطه لا يزال من أهمّ وظائف الفنون القوليّة والبصريّة"[4]، خصوصا الرّواية الّتي تعتبر جنسا من التّخييل الّذي يزاوج بينه وبين الواقع.

ومنه جاءت المدرسة الواقعيّة الّتي كرّست جهودها للاشتغال على المجتمع والإنسان، وقد وجد في الرّواية التّربة المناسبة؛ حيث اشتغلت أقلام المبدعين والرّوائيّين بهذا الجانب؛ وقد نفذت إلى عمق الواقع، وعملت على استنطاقه فكانت تيمته من أبرز التّيمات الّتي طبعت الرّواية العربية، "وبما أنّ الواقعيّة تلقي على الكاتب مهمّة إنسانيّة يتطلّب النّهوض بها معرفة عميقة بقوانين الحياة والتّطوّر، وفهما صحيحا للصّفة التّاريخيّة للحوادث، وموهبة قادرة على استشفاف المشاعر الإنسانيّة، واكتشاف الأفكار الّتي تعتمل في أعماق المجتمع"[5]؛ بحيث تعمل على تصوير الحياة على ما هي عليه.

وقد جسّدت الواقعيّة كلّ لحظات الإنسانيّة، فكان الأدب واجهتها من خلال عنصر التّخييل؛ فمعلوم أنّ النّصوص الأدبيّة تتّخذه للولوج إلى عوالم سرديّة تستطيع من خلالها أن تبر غور المجهول، وتعمل على خلق تجارب إبداعيّة جديدة تغاير ما شاع في الكتابات التّقليديّة، وبذلك ترفض العزف على وتر واحد، وتبحث عن كلّ جديد يتأتّى لها من خلال عنصر التّخييل.

ليتشكّل خطاب التّخييل الّذي يحتوي على قصّة تقوم على أساس حبكة فنّية intrigue، وكلّ حبكة إنّما تستند إلى رؤية معيّنة، يعمد الكاتب من خلالها إلى استخدام تقنيّات سرديّة، واستحضار أدوات أسلوبيّة شتّى، تجعل خطاب التّخييل متميّزا كلّ التّميّز عن نوع الخطاب الّذي يخلو من التّخييل؛ فالخطاب السّردي لا يعكس فقط، أو يدوّن تدوينا سلبيّا – فحسب – عالما مصنوعا سلفا، بل ينشئ المادة المعطاة في الإدراك والتّأمّل ويطوّعها، ويخلق منها شيئا جديدا"[6] يربط بين الواقع والخيال.

وفي هذا الصّدد "لا ينفي جنيت التّداخل بين الواقعي والمتخيّل، وهو يرى أنّ كثيرا من الآثار الأدبيّة هي مزيج من هذا وذاك، أو على الأقلّ فإنّه توجد وساطة بينهما، ويقدّم لنا مثالا عن ذلك الرّواية التّاريخيّة ورواية السّيرة"[7]، وهذا لا يعني وجود تناقض بينهما؛ " ينبغي ألا ينظر إلى خطاب التّخييل على أنّه نقيض لما هو واقعي وموجود؛ بمعنى نفي التّخييل عن كلّ خطاب له مرجعيّة واقعيّة، إنّنا إذا سلمنا بذلك، –سنلغي في هذه الحال– عددا هائلا من الحكايات التّخييليّة، كونها تستمدّ عناصرها الأساسيّة ممّا هو واقعي وموجود بالفعل"[8].

ويطرح هنا نوعان من التّخييل؛ نوع يروي عالما افتراضيّا ممكنا يتداخل فيه مع الواقع، ولكنّه ليس هو الواقع عينه؛ لأنّها من ابتكار المؤلّف رغم أنّ مرجعها واقعي، ونوع آخر يروي عالما افتراضيّا عجائبيّا غير ممكن، كتحوّل شخصيّة غريغوري إلى حشرة في رواية المسخ لكافكا، "وقد ربط أمبرتو إيكو Umberto Eco ببراعة بين العوالم النّصيّة (المتخيّلة) والعوالم الواقعيّة المحسوسة، فوجد أنّ الأولى تقتات من الثّانية، وأنّ ما تتّصف به العوالم النّصيّة هي حرّية التّشكيل والمرونة"[9]، الّتي يتضافر فيه الواقعي مع المتخيّل.

لتبقى النّصوص الأدبيّة، وفي مقدّمتها الرّواية فنّا مثل الفنون الأخرى؛ "أي شكلا من أشكال الإبداع، والفنّ كما يرى ريكور لا يمكن أن يكون محاكاة للحياة؛ بمعنى تصويرها وتمثيلها، وليس هو إعادة إنتاج للواقع، بل هو إنتاج وابتكار في نفس الوقت، فقد تستعير الرّواية من الحياة، ولكنّها تحوّل ما تستعيره إلى شيء آخر"[10] يستلهم من الواقع الحقيقي ليصطبغ بالجانب الإبداعي الأدبي.

2– حضور المرأة في المتون الرّوائيّة:

لقد حظي موضوع المرأة باهتمام المبدعين والكتّاب في نصوصهم الأدبيّة، فقد أضحى هاجسا بالنّسبة للكتّاب، خصوصا في ظلّ شيوع مصطلح الأدب النّسوي الّذي طفا إلى السّطح مع موجة الحركات النّسويّة العالميّة، ومساهمة المرأة في الكتابة، وهذا ما يعني أنّنا أمام تحوّل في نطاق الكتابة؛ لأنّ ممارسة المرأة " للخطاب المكتوب بعد عمر مديد من الحكي، والاقتصار على متعة الحكي وحدها، يعني أنّنا أمام نقلة نوعيّة في مسألة الإفصاح عن الأنثى، إذ لم يعد الرّجل هو المتكلّم عنها، والمفصح عن حقيقتها وصفاتها –كما فعل على مدى قرون متواليّة– ولكنّ المرأة صارت تتكلّم، وتفصح، وتشهر إفصاحها بواسطة القلم، هذا القلم الّذي ظلّ مذكّرا، وظلّ أداة ذكوريّة"[11]. لكنّه مع تيارات النّقد النّسوي أتاح للكاتبة أن تعبّر بدورها عن همومها، ومختلف القضايا الّتي تثير اهتمامها، وتشغلها، وبذلك حقّقت

في الكتابة "أكثر من أيّ مجال آخر هويّة وصوتا متميّزا، وتاريخا طويلا- مع أنّه مسجّل في فترات متقطّعة- من الإبداع، والتّميّز"[12].

وفي هذا السّياق ينظر إلى حضور المرأة في الكتابة من زاويتين هما: كتابة المرأة عن الرّجل الّذي أضحى محور البحوث والدّراسات في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى ما يكتبه الرّجل عن المرأة، فقد حظيت "باهتمام الكثير من الكتّاب والأدباء على اختلاف اتّجاهاتهم، وتعدّد اهتماماتهم، وشغلت حيّزا بارزا في نتاجاتهم الأدبيّة سواء أكان شعرا أم نثرا، وكان الوتر الحسّاس الّذي يتأثّر بحركة الواقع، ويؤثّر فيه"[13] بشكل كبير.

وبهذا يتراءى لنا أهميّة وجود المرأة في مجال الأدب، فقد احتلّ مساحة كبيرة؛ ويشير حسين مناصر في تقابلات الكتابة بين الرّجل والمرأة إلى أنّ "الرّؤى والتّجلّيات الّتي أنتج فيها الرّجل شخصيّة المرأة في كتابته لم تتجاوز نماذج: الشّيء، والرّمز، والدّونيّة، وبعض ملامح الإنسان، وتعدّ أشكال المرأة: الأمّ، والأنثى والمومس، والعرض والشّاذة والأجنبيّة، والملاك والشّيطان والحرمة، والمثقّفة والثّوريّة، والعاملة وربّة البيت والعانس ... أشكالا واقعيّة انتقلت إلى الكتابة الذّكوريّة، فتنمّطت بها شخصيّة المرأة بوصفها نموذجا مستلبا في أدنى المجتمعات وأرقاها"[14]، وإن تغايرت الصّورة المنسوجة من عمل إلى آخر، باختلاف الرّؤى والوقائع الّتي يحكيها كلّ نصّ روائي.

وفي المقابل كتبت المرأة عن الرّجل، فدمّرت "في كتاباتها عن نفسها، رمزيّتها وجسديّتها، ووصاية الآخر عليها، فأنجزت بذلك شخصيّة نسويّة تحاول أن تكون حرّة قويّة، مقابل شخصيّة ذكوريّة مليئة بالسّلبيّات والتّناقضات؛ لذلك يجد المتأمّل لشخصيّات الذّكور في الرّواية النّسويّة مجموعة من الصّور أبرزها: الأب القاسي، والأخ المتعنتر، والزّوج غير المتفهّم، والمحرم المسكون بالمراقبة، والآخر ابن البيئة غير المريح، والأجنبي المعجب، والحبيب الحامل لقيم مجتمعه السّلبيّة، والفارس المحلوم (راكب الحصان الأبيض)"[15]. وغير ذلك من الصّور المبثوثة في المدوّنة الرّوائيّة النّسويّة.

وعلى هذا الأساس تتشكّل الصّورة "في واقع المرأة الاجتماعي، وفي متخيّلها الإبداعي، خاصّة لدى المرأة/الأنثى الّتي تشعر أكثر من غيرها بقيود ذكوريّة ضخمة تحاصرها، فترى نفسها حصنا مهدّم الأسوار يتعاقب على استغلاله الغزاة، فيفرضون عليه شروطهم وقيودهم"[16]، ومن هنا اختلفت الصّور بين الكتابة الذّكوريّة للمرأة من جهة، والكتابة النّسائيّة للرّجل من جهة أخرى.

3- حظوة الأمّ في التاريخ والأدب:

تعتبر شخصيّة الأمّ من أكثر الشّخصيّات حضورا في مختلف الآثار الأدبيّة قديمها وحديثها، وفي جميع المجتمعات؛ فهي تظلّ منبعا للرّاحة والطّمأنينة تحمل صفة القداسة، والإشراق الدّائم، ولطالما رمزت إلى الأرض والوطن، "إنّ تناول شخصيّة الأمّ في الأدب عامّة يفتح باب الدّلالات على معاني أكثر خصوبة، وأكثر تميّزا، فهي معادل حقيقي وصحيح للأرض تلك الّتي نأكل من نبتها، ونعيش عليها، ونرتبط دوما بذلك المكان فنعود إليه عند الاغتراب، والهجر، كما تحيلنا لمعاني الوطن ذلك الحضن الأكبر الّذي يأوينا، ويحمينا، ولا نشعر بالثّقة والأمان إلاّ في وجوده وبقائه، فرواية الأمّ لمكسيم جوركي كانت الدّلالة منفتحة فيها مباشرة على روسيا الوطن الكبير بكلّ أزماته، وتطلّعاته، وشكّلت الرّواية تأثيرا كبيرا على أجيال كثيرة من حيث معاني الثّورة، وبناء الأوطان"[17].

وبالحديث عن شخصيّة الأمّ نشير إلى الصّراع الأدبي الّذي طغى على هذا الجانب فهناك آراء تقول بسيطرة الأم عبر الزّمن ثمّ انتقالها إلى الرّجل (الأب) خاصّة في المجتمعات البدائية الأولى؛ حيث "كانت الأم تهتمّ بالأبناء وترعاهم وإليها ينتسبون، ولا ينتسبون للأب، بل لا يعرف الأب في كثير من الأحيان"[18]؛ لأنّ الأم وحدها تملك حقّ النّطق بكلّ شيء حتّى الانتساب وقد شاع ذلك في المجتمعات البدائية الأولى.

وفي مرحلة موالية ارتقى الإنسان في حياته، وتملّك الرّجل/ الأب اليد الطولى في السّيطرة على الأسرة، ودخل في نطاق ما يعرف بالنّظام الأبوي أو البطرياكي، ماجعل المرأة / الأم تنهزم وتفقد حقّ السّلطة والوصاية، ثمّ إنّ مفهوم الأبويّة " غير منفصل عن مفهوم السّلطة، فقد تضافرت فيه عدّة ظروف إنتاج مميّزة، حتّى أصبحت صفة غالبة وسائدة على العديد من المجتمعات "[19] إلى يومنا هذا؛ حيث نلحظ جلّ الشّعوب تحتكم إلى سلطة الأب لا سلطة الأم.

ومع تفحّص ملامح هذا النّظام في المجتمع العربي يتجلّى لنا أنّ الفحولة في الموروث العربي؛ أي القوة كانت معيارًا تقويميا " يسكن وعي النّاس، ويُحيل على ما يكفل سيادة القبيلة وديمومتها في الحياة، يقدّم شعر المديح والفخر والهجاء على الرّثاء، ويفضّل من يغزو على من ينتج، ويعلي من شأن من يُقاتل ويقتل على من يرعى بقلبه، ويرتّي بنور عينه"[20]، وفي كلّ هذا إحالة إلى سطوة الرّجل، ومساهمته الفاعلة في أغلب الميادين الحياتية.

ورغم ذلك تواجدت العديد من الأعمال الأدبيّة الّتي تناولت شخصيّة الأمّ، على غرار كتابات نجيب محفوظ الزّاخرة، وخيري شلبي في رواية الوتد، وما تناوله محمود درويش في جلّ قصائده، فلم تغب شخصيّة الأمّ عن الأدب، فهناك العديد من النّماذج الّتي صوّرتها "خاصّة في صورتها الملائكيّة المثاليّة/ أو الواقعيّة الّتي تؤكّد على مثالية الأم ولا تنفيها، بما تمثّله من قيم التّضحيّة، والبذل والتّفاني في خدمة أسرتها، والدّفاع عن أبنائها مهما كان الثّمن"[21]، ومن ذلك نذكر رواية الأمّ لجراتسيا داليدا، وباولا لإيزابيل اللّيندي، والأرض لبيرل بارك، وأمّ العروسة والحفيد لعبد الحميد جودة السّحار، ورواية بحجم حبّة عنب لمنى الشّيمي، وغيرها من الأعمال الأدبيّة.

وتظلّ الأمّ من أبرز الموضوعات الإنسانيّة الّتي تشكّل مادة خامّ في الإبداع الأدبي، فهي تجمع القداسة والنّقاء، إضافة إلى الحنان والعطف، إنّها سيل جارف من القيم الّتي تستثير ملكة كلّ شاعر وأديب، فهي بين المثاليّة والواقعيّة تبقى عنوانا للخير والتّسامي الّذي يحلّق بك في عوالم الطّهر الصّافي، على عكس عبارة ألبر كامو في روايته الغريب الّتي بدأها بقوله: "اليوم ماتت أمّي، أو لعلّها ماتت أمس، لست أدري، وصلتني برقية من المأوى: الأمّ توفيّت، الدّفن غدا احتراماتنا، وهذا لا يعني شيئا ربّما حدث الأمر أمس"[22]؛ فهذا يشي بعدم اهتمام الرّوائي بالحدث الّذي وقع المتمثّل في وفاة الأمّ كأنّ الأمر لا يعنيه، حتّى أنّه لم يكترث، ولم يستأثر باهتمامه في تعبيره الصّريح، الأمّ توفيّت، وربّما حدث الأمر أمس، فهنا نلحظ حضورا –وإن كان عارضا– باهتا لشخصيّة الأمّ، والّتي يتّفق الجميع على أنّها نبراس ونور، ومنبع العطاء اللاّمتناهي، وهذا ما يتجلّى في رواية أمّ سعد لغسان كنفاني.

4– صورة الأمّ في رواية أم سعد لغسان كنفاني:

4. 1– حظوة المرأة في أدب غسان كنفاني:

نالت المرأة النّصيب الأوفر في معظم الكتابات الأدبيّة سواء العربيّة أو الغربيّة، وتعدّدت صورها وحضورها بتعدّد الموضوعات الّتي عالجتها النصّوص الأدبيّة عموما، والرّوائيّة على وجه الخصوص، وغسان كنفاني كغيره من الأدباء تناول هذا الموضوع، رغم ما شاع عنه في وسم أدبه بأنّه أدب ذكوري، ومردّ ذلك لكونه "عاش قضيّة، ومات لأجلها، تلك القضيّة أخذته من كلّ شيء، وهو القائل خلقت أكتاف الرّجال لحمل البنادق، وقد أشار كثر إلى تقصير كنفاني في تناول المرأة في رواياته"[23]، وفي هذا الصّدد تقول رضوى عاشور: "إذا أخذنا غسان كنفاني ككلّ فسوف نجد فيها صورة المرأة قليلة للغاية، إنّه يعرف

الرّجال أكثر، وبالتّالي فهو يكتب عنهم، ومن البديهي والمسلّم به أنّ من حقّ كلّ كاتب أن يكتب عمّا يعرفه أكثر"[24].

والمتصفّح لأعمال كنفاني يلاحظ بأنّها تناولت حضور المرأة عموما، والأمّ على وجه الخصوص، فعلى "امتداد رواياته قدّم صورا مختلفة للأمّ، ولكن أمّ سعد تبقى الأنموذج الفريد من الأمّهات، ليس لأنّ الرّواية باسمها، ولا لأنّها شخصيّة حقيقيّة عرفها الكاتب طفلا في فلسطين، ورجلا في مخيّمات اللّجوء في لبنان، بل لأنّها تجمّع كثيف لمجموعة أمّهات في أمّ واحدة، فهي الأمّ الثّوريّة والعاملة والمربّية والعاطفيّة"[25]، ويبدو أنّ كنفاني تحدّث عنها في أكثر من عمل من أعماله الأدبيّة.

ولم يقتصر الأمر على كنفاني فحسب بل شهدته الرّواية الفلسطينيّة عموما، فقد قدّمت "حضورا مميّزا للمرأة التّقليديّة، الّتي لم تكن مدانة في معظم الأحيان؛ ذلك لأنّها تجسّدت غالبا في صورة الأمّ المثال، الّتي تحاط بهالة من التّقدير تبلغ حدّ التّقديس أحيانا، هذه الصّورة المثاليّة للأمّ، انعكست في الرّواية الفلسطينيّة لدى معظم الرّوائيّين الفلسطينيّين، فعلى نفس القدر من الجلال الّذي تحتلّه الأمّ في واقع الحياة يأتي التّصوير المعبّر، ولما كان الواع اليومي في المجتمع الفلسطيني، ولا سيّما مجتمع الأرض المحتلّة يتّسم بالمعاناة الشّديدة، والضّغوك الحياتيّة بمختلف أنواعها، كان لا بدّ أن ينعكس هذا الواقع المؤلم على الأسرة الفلسطينيّة وعصبها الأساسي الأمّ"[26].

ولعلّ رؤية كنفاني للمرأة – عامّة – ترتبط "في حركيّتها الاجتماعيّة الواقعيّة الّتي تخدم مقاومة الاحتلال، ومواجهة الشّتات، وقد أتقن النّقاد إحالة واقعيّة المرأة إلى علاقات رمزيّة في دراساتهم، فاعتبروا العلاقة الحميمة بين المرأة والأرض رموزا لتمثّل أمّ سعد في رواية أمّ سعد الأمّ الرّمز للأرض والشّعب، كما تمثّل مريم في ما تبقّى لكم رمزا للعلاقة بين الأرض والعرض، وعلى هذا الأساس غالبا ما تقرأ رواياته بافتراض أنّها لغة مزدوجة ذات بعدين في آن، بعد واقعي وآخر رمزي، ممّا يرتفع بلغته الرّوائيّة إلى مستوى فنّي رفيع، يتيح المجال لتعدّديّة مستويات القراءة والاختلاف"[27]، رغم تصريح حسين مناصرة بقوله: "إنّ حركيّة المرأة الفلسطينيّة في روايات كنفاني بوصفها حركيّة ذاتيّة تهتمّ بقضايا المرأة ... هي حركيّة مهمّشة عموما"[28]، ومع ذلك فقد كان لها حضور أبان عن تعدديّة صورها الّتي تتقلب حينا بين الواقعيّة، وتقترب حينا آخر إلى المثاليّة الّتي تنحت شكلها من عالم التّخييل السّردي.

4. 2- تجلّيات صورة الأمّ في رواية أمّ سعد:

تظهر في رواية أمّ سعد صورة الأمّ الفلسطينيّة المكافحة فهي تمثّل نموذج الأمومة والإنسانيّة، والتّوحّد مع الوطن، "وتعدّ شخصيّة أمّ سعد من أبرز الشّخصيّات النّسائيّة وأكثرها قدرة، وتعبيرا على الدّور النّضالي للأمّ الفلسطينيّة الّتي عاشت زمن الكبوة والعجز والوجع، في مخيّمات الأسى واللّجوء، وشهدت انحسار مشاعر الإحباط الّتي سكنت نفوس اللاّجئين على مدى عشرين سنة؛ بفضل بزوغ فجر السّلاح من جهة، وبفضلها هي لأنّها بحملها أعباء أسرتها أتاحت لأبنائها أن ينصرفوا للعمل العسكري"[29]، وبذلك أتاحت بما توافر في هذا المتن الرّوائي الوقوف عند مختلف الصّور الّتي تبلورت حولها.

ويظهر ذلك مع أولى العتبات المتعلّقة بالإهداء: إلى أمّ سعد، الشّعب المدرسة؛ فواقعيّة أمّ سعد تظهر في قول غسان كنفاني: "أمّ سعد امرأة أعرفها جيّدا .. وما زلت أراها دائما، وأحادثها وأتعلّم منها، وتربطني بها قرابة ما، ومع ذلك فلم يكن هذا بالضّبط ما جعلها مدرسة يوميّة؛ فالقرابة الّتي تربطني بها واهية إذا ما قيست بالقرابة الّتي تربطها إلى تلك الطّبقة الباسلة المسحوقة والفقيرة، والمرميّة في مخيّمات البؤس، والّتي عشت فيها ومعها والّتي لست أدري كم عشت لها"[30]، فأمّ سعد شخصيّة حقيقيّة واقعيّة علّمت الكاتب الكثير.

ويقول في هذا السّياق: "وأكاد أقول أنّ كلّ حرف جاء في السّطور التّالية إنّما هو مقتنص من بين شفتيها اللّتين ظلّتا فلسطينيّتين رغم كلّ شيء، ومن كفّيها الصّلبتين اللّتين ظلّتا، رغم كلّ شيء، تنتظر السّلاح عشرين سنة، ومع ذلك فأمّ سعد امرأة واحدة، ولولا أنّها ظلّت جسدا وعقلا، وكدحا في قلب الجماهير، وفي محور همومها، وجزءا لا ينسلخ من يوميّاتها، لما كان بوسعها أن تكون ما هي، ولذلك فقد كان صوتها دائما بالنّسبة لي هو صوت تلك الطّبقة الفلسطينية الّتي دفعت غاليا ثمن الهزيمة"[31].

ومن هنا تنبثق صورة الأمّ الواقعيّة في نصّ كنفاني؛ هذا الكاتب الّذي يتساءل خالد أبو خالد عن براعته، وتفرّده في مجال الكتابة، "ترى أيّة طفولة.. وأيّ صبا عاشهما الكاتب الّذي منحه كلّ هذا الفيض من الحبر إلى الدّم؟ وكيف تشكّلت ملامح الكاتب الثائر؟ من الّذي وما الّذي أسهم أكثر في تكوينه، النّكبة أم الأسرة؟ النّاس الّذين عرفهم وارتبط بهم؟ أم الّذين عرفوه وارتبطوا به؟"[32]، فقد عبّر عن الأنا الجمعيّة في مشروعه الكتابي، وكانت القضية الفلسطينيّة هي شغله الشّاغل.

ويضيف عدنان كنفاني عن غسان: "أرتعش كلّما قرأت لغسان، تشتدّ نبضات قلبي، أحسّ بالدّوار إن تحدّثت عنه، أخاف أن أقسو فتنكسر صورة مرسومة بريشة ناعمة على صفحة ماء رائق، وتغوص بعيدا عن ملمس أصابعي، رغم أنّها تنبض في صدري، تسير في شرايييني"[33]، هذه الشّهادات تظهر مدى اهتمام غسان كنفاني بالثّورة والقضيّة، فجلّ أعماله انضوت تحت لواء الكفاح، وكان في كلّ عمله نموذج يعكس ذلك، فمثلا لا يمكن " الحديث عن شخصيّة أمّ سعد دون استحضار الثّورة، فهي الأنموذج الكنفاني للمرأة الّتي تفوح منها رائحة البارود أكثر ممّا تفوح منها رائحة المطبخ"[34]، فأوّل صورة تظهر لشخصيّة الأمّ في هذا النّص الرّوائي هي الأمّ المناضلة الّتي تشارك في الثّورة.

كما أنّ رواية أمّ سعد "تقتصر على بلورة شخصيّة نسويّة وحيدة رئيسيّة هي شخصيّة أمّ سعد الّتي تتجلّى بصورتيها: الأمّ الإنسان، والأمّ الرّمز الشّامل لطبقة المخيّم في المنفى، ولكلّ الأمّهات المشابهات، فهي كلّ أمّ فلسطينيّة رفضت أسمال البؤس، واختارت طوعا وقناعة طريق المقاومة متوحّدة مع الأرض، ورجالها تحمل همومها وآلامها، وتسهم في حلّها"[35]، فهي تمثّل صدى الصّوت الجماعي الفلسطيني.

فصورة أمّ سعد مستنبطة من الواقع، "لكونها امرأة مسحوقة تعيش بؤس المخيّم، وهي رامزة تحمل مواصفات تتجاوز العادي، والمألوف إلى ما هو أسطوري في مثاليّتها، وقدرتها على تحمّل مآسي الواقع، والتّفاؤل بالمستقبل، وبذلك تعدّ أمّ سعد في الرّواية الفلسطينيّة المحور الرّمزي، في كونها مجاز الزّمن الفلسطيني النّاهض، وهي ليس مجازا للمرأة فحسب، بل مجازا تتكشّف في شبكته الرّمزيّة كلّ القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة للشّعب الفلسطيني"[36].

وتتّصف شخصيّتها بالخصائص الإنسانيّة، فهي رغم كونها عاشت لاجئة في المخيّم بلبنان إلاّ أنّها ظلّت متعلّقة بالأرض، والوطن فقد "كانت الثّورة هي المظلّة الكبيرة الّتي يكتبها تحتها غسان كنفاني، فنساء رواياته إمّا ثوريّات، أو على علاقة ما بالثّورة، ورجال رواياته لا يخرجون عن هذا الإطار"[37]. فأولى تجلّيات صورة الأمّ هي الثّورة والجهاد، وقوّة الشّخصيّة النّابعة من الوعي؛ "قالت زوجتي: لقد اختفت أمّ سعد منذ تفجّر القتال، وها هي تعود وكأنّما على إيقاع الهزيمة ... لقد قاتلوا من أجلها وحين خسروا خسرت هي مرّتين، تراها ماذا ستقول الآن؟ لماذا تجيء وكأنّها تريد أن تبصق في وجوهنا؟ كيف تراها رأت المخيّم حين غادرته هذا الصّباح؟"[38]

ومن ملامح أمّ سعد "أنّها سيّدة في الأربعين كما يبدو لي قويّة كما لا يستطيع الصّخر، صبورة كما لا يطيق الصّبر، تقطع أيّام الأسبوع جيئة وذهابا تعيش عمرها عشر مرّات في الشّعب والعمل كي تنتزع لقمتها النّظيفة، ولقم أولادها"[39]؛ إنّها مناضلة، ومكافحة، تكدح من أجل العيش والبقاء ينعتها الكاتب بقوله: "وفجأة رأيتها جالسة هناك، عجوزا قويّة، اهترأ عمرها في الكدح الشّقي، كانت كفّاها مطويتين على حضنها، ورأيتهما هناك جافتين كقطعتي حطب، مشقّقتين كجذع هرم، وعبر الأخاديد الّتي حفرتها فيهما سنون لا تحصى من العمل الصّعب، رأيت رحلتها الشّقيّة مع سعدمذ كان طفلا إلى أن شبّ رجلا"[40] أمّ سعد تبدو قويّة مليئة بالرّغبة رغم ما فعلته بها السّنون، كما يتجلّى الجانب الإنساني في شخصيّتها المتمثّل في أمومتها.

وفي مقطع سردي آخر يجمع بين الأمّ المجاهدة، الصّبورة والأمّ الثّوريّة الّتي تقدّم أبناءها من أجل الوطن، وهذا في ردّها على سؤال حول انضمام ابنها سعد إلى الفدائيّين؛ قلت لجارتي هذا الصّباح أودّ لو عندي مثله عشرة، أنا متعبة يا ابن عمّي، اهترأ عمري في ذلك المخيّم، كلّ مساء أقول يا رب! وكلّ صباح أقول يا رب! وهنا قد مرّت عشرون سنة، وإذا لم يذهب سعد فمن سيذهب؟"[41]، بل وتظهر صورة الأمّ الفلسطينيّة في أعظم صورها عندما خاطبت المرأة الجالسة أمامها بأنّ ولدها أضحى مقاتلا، "يا نور عيني أمّه! أودّ لو كان قريبا فأحمل له كلّ يوم طعامه من صنع يدي، يأكل مثل رفاقه، اسم الله عليهم جميعا"[42]، كما أنّ أمّ سعد تتمنّى لو تستطيع اللّحاق بركبهم تطبخ لهم وتخدمهم، كما أنّها رغبت في أن توصي به عند رئيسه.

وتبرز صورة الأمّ في هذا المتن الرّوائي حين يحاصر سعد مع بعض رفاقه الفدائيّين في موقع داخل الأرض المحتلّة، ويطول الحصار يعانون خلالها الجوع، والإرهاق وتمرّ بهم أمّ سعد فيقول سعد: "ها قد جاءت أمّي! ونظر الرّجال إلى رأس الطّريق الضّيق المنحدر كالثّعبان من التّلة، وهناك رأوا امرأة في ثوبها الرّيفي الطويل الأسود تنزل قادمة صوبهم"[43]، غير أنّ أحد الفدائيّين يظنّ بأنّ سعدا يهذي فكيف لأمّه أن تأتي إلى مكان كهذا، "وقال أحد الأربعة: أمّك؟ أمّك في المخيّم يا أخوت .. ضربك الجوع بالعمى! وقال سعد: أنتم لا تعرفون أمّي ... إنّها تلحق بي دائما، وهذه أمّي"[44].

وتتّضح الصّورة أكثر عندما ينادي سعد: "يا يما ردّي عليا .. أنا هون يما .. أنا سعد، يا يما جوعان"[45]، فأجابته قائلة: "يجوع عدويك يا ابني تعال لعند أمّك ... واقترب سعد أكثر كانت خطواته مطمئنة، وكان رشاشه ما زال يتأرجح على كتفه، من غير اكتراث، وحينما صار على بعد خطوة منها

فتحت ذراعين واحتظنته: يا حبيبي ... يا ابني ... الله يحميك"[46]. يظهر هذا المقطع مدى تأثّر أمّ سعد بحال ولدها.

لتزداد الصّورة تأثيرا وترتسم بشكل شاعري حينما يقول سعد: "يا يما، بدنا أكل، وانحنت المرأة فناولته الصّرة، وحين أخذها رأيي عينيها تدمعان، فقال لها: حلفتك بالنّبي لا تبكي يا يما! قالت العجوز: معك بقيّة الأولاد؟ أطعمهم في المغرب سأمرق من هنا وأضع الزّوادة على الطّريق .. الله يحميكم يا أولادي"[47]، يبدو أنّ أمّ سعد هي أمّ الجميع، سواء داخل فلسطين أو خارجها؛ "إنّها باختصار الأمّ الشّاملة الذي ينتمي أبناء فلسطين وغيرهم من الأوفياء لأرضهم، لتاريخهم لأرواح شهدائهم"[48]، الّذين ضحّوا بالغالي والنّفيس في سبيل الوطن.

وبالتّالي تعدّ شخصيّة أمّ سعد من الشّخصيّات الّتي أبانت عن قدرتها الهائلة في الصّبر والتّحمّل، والنّضال فقد عاشت الأوجاع في المخيّمات، وشعرت بما شعر به اللاّجئون، وتحمّلت أعباء أسرتها، وشجّعت فلذات كبدها على الجهاد، بل حتّى هي في قرارتها رغبت في العمل العسكري؛ " أتدري إنّ الأطفال ذلّ! لو لم يكن لديّ هذان الطّفلان للحقت به، لسكنت معه هناك، خيام؟ خيمة عن خيمة تفرق!"[49]، هذه الجرأة والرّغبة الّتي تصدر عن أمّ ثوريّة ليست محض صدفة، فقد أنّ كنفاني "لم يكن يكتب بقدرما كان يرسم بالكلمات؛ إذ قدّم صورة كاملة لامرأة جريئة ثائرة، واستطاع أن يلج عالم النّساء حين يكنّ ثائرات"[50] أمثال أمّ سعد.

ولعلّ أبرز صورة تظهر لشخصيّة الأمّ تتمثّل في تعلّقها بالأرض، وذلك في حديثها مع الرّاوي باعتبار أنّ الأرض ما زالت على موعد مع أبنائها، فما دام العود اليابس بإمكانه أن يصبح دالية، فالمعركة لم تنته؛ "وضعت صرّتها الفقيرة في الرّكن، وسحبت من فتحتها عرقا بدا يابسا ورمته نحوي، قطعته من دالية صادفتني في الطّريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنبا"[51]، ويزداد تعلّق أمّ سعد بالأرض، حيث ترغب في أن تراها قبل أن تموت، "والزّيتون لا يحتاج إلى ماء أيضا؛ إنّه يمتصّ ماءه عميقا في بطن الأرض، من رطوبة التّراب"[52].

ولا تتوقّف ملامح صورة الأمّ في هذه الرّواية على تعلّق الشّخصيّة بالأرض والثّورة، وجانبها الإنساني، بل تظهر ملامح أخرى تبرز مدى صلابتها، ومساعدتها لعائلتها من خلال عملها بحثا عن لقمة العيش، في ظلّ ظروف مزرية يغلب عليها الفقر في الملاجئ، وهنا تتماهى مع الصّورة الواقعيّة؛ حيث "لمسنا حرص الرّوائي الفلسطيني على أن يقدّم صورة واقعيّة حيّة للأمّ الكادحة الصّابرة، المربيّة للأبناء،

الوفيّة للزّوج، المعينة له في شؤون العائلة، بل الحاملة همّه، ومسؤوليّة أحيانا؛ بالإضافة لمسؤوليّتهاكما الحال لدى أمّ سعد"[53]، محور القصّة في عمل كنفاني.

ويقول في هذا الإطار حسان رشاد الشّامي: "في رواية أمّ سعد يقدّم كنفاني المرأة الفلسطينيّة الكادحة الّتي كابدت بؤس المخيّم، بكلّ أبعاده، وعاشت عشر سنوات من عمرها في التّعب والعمل كي تنزع لقمتهان ولقم أولادها، تخدم في بيت الآخرين، وبيت الرّاوي"[54]، وترتسم صورتها في قول غسان كنفاني: "إنّها سيّدة في الأربعين، كما يبدو لين قويّة كما لا يستطيع الصّخر، صبورة كما لا يطيق الصّبر، تقطع أيّام الأسبوع جيئة وذهابا، تعيش عمرها عشر مرّات في التّعب والعمل كي تنتزع لقمتها النّظيفة، ولقم أولادها"[55]، فأمّ سعد تتميّز بالصّبر وقدرة التّحمّل رغم كونها في الأربعين إلاّ أنّها أبت أن تقف على الرّصيف، بل خاضت غمار العمل، والتحقت المعاناة للحصول على لقمة العيش.

كما تلوح في الأفق معالم الإنسان الّذي ينبع من شخصيّة أمّ سعد، "لقد جاءت مثلما يستلّ السّيف من غمده الصّامت، ووقفت هناك على بعد لحظة واحدة من بريق العين الصّامدة، عمري كلّه لم أر كيف يبكي إنسان مثلما بكت أمّ سعد، تفجّر البكاء من مسام جلدها كلّه، أخذت كفّاها اليابستان تنشجان بصوت مسموع، كان شعرها يقطر دموعا، شفتاها، عنقها، مزق ثوبها المنهك، جبهتها العلية، وتلك الشّامة المعلّقة على ذقنها كالرّاية، ولكن ليس عينيها"[56]، إنّها لوحة معبّرة تجعلك تقف عند الجانب الإنساني لشخصيّة الأمّ في هذا المتن الرّوائي، فكلّ شيء فيها يبكي باستثناء عينيها، وهذا الّذي تبديه من خلال قولها: "أنا لا أبكي يا ابن عمّي، لقد بكينا كثيرا، كثيرا .. كثيرا"[57] طيلة عشرين سنة.

فهي كبقيّة البشر تتعرّض للحظات الانتكاس والتّعب، بل والنّكوص، تستسلم لمواقف الإرهاق والتّعب، تظهر إنسانيّتها كبقيّة الفلسطينيّين، وفي لحظة تترك الصّمود يمرّ، لتقرّ بأنّها لم تعد ترغب في الحياة، الّتي أنهكتها، حتّى وإن لم تنزل دموعها على خدّيها، وبهذا نسج كنفاني صورا تترجم جماليّة شخصيّة أمّ سعد من خلال حضورها حتّى ولو بدا للقارئ في أنّه يتكلّم على لسانها أحيانا، "عادت أمّ سعد ففرشت راحتيها أمامي، كانت الجروح تمتدّ فوق خشونتهما أنهرا حمراء جافّة، تفوح منها رائحة فريدة، رائحة المقاومة الباسلة حين تكون جزءا من جسد الإنسان ودمائه"[58].

فرغم كون الرّوائي صرّح بأنّ شخصيّة أمّ سعد حقيقيّة إلاّ أنّ عنصر التّخييل ينبثق من اللّغة الموظّفة الّتي تعبّر عن شخصيّة الأمّ ببساطتهان وتعبيرها المباشر، وهذا مايؤكّد أنّ الرّوائي الفلسطيني حرص "على أن يقدّم المرأة الفلسطينيّة في إطار إنساني، وفنّي بديع، ومميّز، إذ قدّمها إنسانة مكافحة، متفائلة

بالمستقبل، محبّة للحياة والأرض والعمل، غسان كنفاني واحد من أولئك الرّواة، وأمّ سعد إحدى أولئك الأمّهات، مع التّأكيد على أنّ أمّ سعد عايشت الكاتب في النّص الحياتي، قبل أن تعايشه في النّص الحكائي"[59].

تعدّدت صور أمّ سعد في رواية كنفاني فهي: "واقعيّة لكونها امرأة مسحوقة تعيش بؤس المخيّم، وهي رامزة تحمل مواصفات تتجاوز العادي والمألوف إلى ما هو أسطوري في مثاليّتها وقدرتها على تحمّل مآسي الواقع، والتّفاؤل بالمستقبل، وبذلك تعدّ أمّ سعد في الرّواية الفلسطينيّة المحور الرّمزي؛ في كونها مجاز الزّمن الفلسطيني النّاهض، وهي ليست مجازا للمرأة فحسب، بل مجازا تتكشّف في شبكته الرّمزيّة كلّ القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة للشّعب الفلسطيني"[60]؛ إنّها أنموذج يرتحل من الواقع الحيّ إلى التّخييل السّردي ليطبع النّص بطابع خاصّ يفرد كنفاني عن غيره من المبدعين في رسم صورة للأمّ فبين المعاناة، وثقافتها البسيطة، "تتشكّل شخصيّتها من خلال السّرد، وكأنّها كلّ أمّ متصوّرة واقعيّا في ظروف مشابهة بعد أن تحوّلت إلى رمز شامل لتطوّر الإنسان الفلسطيني الكادح في بحر المعاناة، وتطوّر المقاومة الفلسطينيّة الصّابرة داخل طبقاتها الدّنيا الّتي تتّضح فيها مأساة المنفى، والحاجة الملحّة للعمل من أجل تحرير الوطن"[61] من براثن الكيان الصّهيوني.

إنّ تشكّل صورة الأمّ في نصّ غسان كنفاني تضوّع أريجه حتّى بلغ منتهاه على أصعدة كثيرة، فقد اقترن مع غصن الدّالية الجافّ، الّذي زرعته أمّ سعد في حديقة الرّاوي؛ فما أنتجه "الوعي الثّوري في النّاس تنتجه الأرض في الدّالية الّتي ظهر فيها رأس أخضر كان يشقّ التّراب بعنفوان له صوت، ومن خلال تحوّلات عديدة ثوريّة إيجابيّة تفتحها الرّواية، نجد أمّ سعد نفسها تتحوّل إلى أمّ أخرى داخل فلسطين، تنقذ سعدا ورفاقه من حصار صهيوني كاد يقتلهم جوعا وعطشا"[62].

نستنتج بأنّ الكاتب لم يخلق هذه الشّخصيّة النّسويّة؛ "لأنّها موجودة فعلا في الواقع، لكن فضله أنّه استطاع أن يرتقي بالبطولة النّسويّة في هذه الرّواية إلى مرتبة رفيعة، هي مرتبة الأمّ الرّمز الشّامل للثّورة، وحوارية أضدادها"[63] الّتي تتشظّى لتتعلّق بجوانب أخرى تتماسّ مع الكفاح والثّورة إلى البعد الإنساني الّذي يطبع الأمّ على سائر البشر.

غير أنّ صورة الأمّ الكنفانيّة لم تقتصر على هذا الجانب المتّفق عليه، بل امتدّ ليصل إلى آثار الفقر، والكدح في سبيل العيش، والاهتمام بالأبناء، وبزوجها كذلك، وما يلفت الانتباه أكثر في شخصيّة أمّ سعد طغيان عنصر الأمومة، وعاطفتها عبر امتداد صفحات العمل الأدبي، وتعلّقها بابنها سعد؛ "لماذا

لم تتناول فطورك؟ أنا لم أتناول فطوري أيضا، أنتظر شيئا ما يفتح شهيّتي، ليس للأكل فحسب، ولكن للحياة أيضا ... أتصدّق؟ ليس ثمّة من يستطيع أن يفعل ذلك إلاّ سعد"[64]، الّذي أصبح مقاتلا في صفوف الفدائيّين.

لقد اعتنى غسان كنفاني ببناء شخصيّات روايته، "مع فارق بسيط أنّ أمّ سعد شخصيّة حقيقيّة توافق تركيبها خلقيا وحياتيّا مع ما كان يصنعه غسان مع شخصيّاته الروائيّة، ولعلّ هذا أحد أسباب تعلّق غسان كنفاني بأمّ سعد؛ إذ وجده كما يريد، فوفّرت عليه عناء صناعتها على ورق"[65] فجاءت شخصيّتها عميقة، بسيطة وعفويّة على الرّغم ممّا ميّزها من فقر ومعاناة، "وأنا في ملابسي الرّثة وشعري الّذي طيّر ريح الطائرة غطاءه، ووجهي الملطّخ بالرّمل والقرف"[66]، أبت أمّ سعد إلاّ أن تكون أمّا ومناضلة وثوريّة، وفي الكلّ إنسانة.

ينظر إلى هذه الصّور المتعدّدة من كلّ الزّوايا؛ حيث تظهر شخصيّة أمّ سعد فدائيّة تتمتّع بالقوّة والجرأة، وأمّا تضحّي بالغالي والنّفيس من أجل أبنائها ووطنها، ومكافحة تحاول أن تعمل لسدّ الرّمق النّاتج عن الجوع الّذي ينخر كيانها، وفي المطلق أمّا بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من إيحاءات ودلالات، ومعان متناثرة عبر صفحات الرّواية.

ومع ذلك ظلّت صامدة وشامخة لا تهدأ على الإطلاق؛ "ماذا يا أمّ سعد؟ هل وقعت؟ وبسرعة التفت إليّ: وقعت؟ أمّ سعد لا تقع. لماذا؟ ثمّة وحل على تنورتك. حكّت الوحل بأصابعها الخشنة، ثمّ تركته لشأنه حين أحسّت أنّه ما زال طريّا وقالت: طاف المخيّم في اللذيل ... الله يقطع ها العيشة"[67]، ليبقى الأمل متجدّدا، والإشراق حاضرا يبرز مع نهاية أحداث الرّواية؛ "وفوحت الغرفة برائحة الرّيف العريق حين أخذت أمّ سعد صرّتها الصّغيرة، وتوجّهت إلى الباب، ولوهلة اعتقدت أنّها مضت، إلاّ أنّني سمعت صوتها يعبر من بين المصراعين المفتوحين على وسعهما... برعمت الدّالية يا ابن العمّ برعمت!"[68].

ومعها برعمت صورة أمّ سعد لتنتقل مع انتقال العودة مثل النّبتة اليابسة، فترى، و"تنظر إلى رأس أخضر كان يشقّ التّراب بعنفوان له صوت"[69] تترجمه شخصيّة الأمّ في رواية غسان كنفاني الّتي انتقل بها من رحاب الواقع إلى آفاق التّخييل السّردي المتميّز.

خاتمة:

بعد الخوض في غمار هذا البحث الموسوم: صورة الأمّ في رواية أمّ سعد لغسان كنفاني بين الواقعيّة والتّخييل السّردي تمّ رصد نتائج يمكن حصرها فيما يلي:

- شاع عن أدب غسان كنفاني طبعه بسمة الذّكوريّة الخالصة، لكونه لم يحفل باهتمام كبير بالمرأة على الرّغم من وجودها وحضورها في ثنايا أعماله الرّوائيّة والقصصيّة، غير أنّ هذه الدّراسة أظهرت جوانب أخرى كسرت قيود هذه الملاحظة الحديديّة؛ حيث وقفنا عند تعدّد الشّخصيّات النّسائيّة في كتابات كنفاني.
- رواية أمّ سعد نموذج يصوّر اشتغاله على شخصيّة الأمّ؛ حيث أفرد لها عملا كاملا، جعلنا نسبر غوره لنقف عند الانتقاليّة اللاّفتة لشخصيّة أمّ سعد من رحاب الواقعيّة إلى التّخييل السّردي؛ فقد وجد الأديب فيها مادة جاهزة صنع منها ما أراد على الورق، فشكّلت موضوعا متفرّدا سطع في أفق نتاجاته الأدبيّة.
- اتّضحت معالم صورة الأمّ من المثاليّة الّتي تطغى عليها مسحة الإنسانيّة إلى الثّوريّة وحبّ الأرض والوطن، والدّفاع المستميت من أجل حرّيته، وذلك بدفع ابنها سعد إلى صفوف الفدائيّين، وقد أظهر هذا تميّز الأمّ الكنفانيّة على غيرها من شخصيّاته الرّوائيّة، فأمّ سعد رمز الأمومة الشّاملة لكلّ الفلسطينيّين عبّر الكاتب من خلالها عن الذّات الجمعيّة، كما أنّها رمز للنّضال والجرأة والتّضحيّة.
- تعلّق أم سعد الشّديد بالعمل، فعلى الرّغم من الفقر والمعاناة دلفت إلى قلب معركة الحياة بحثا عن وظيفة أو شغل يساعدها على تلبية ضروريّات تسدّ رمقها، مع عائلتها رغم شظف العيش، وصعوبته لتغلب العاطفة والأمومة عليها مع قساوة الظّروف لم تستسلم بل واصلت الكفاح، والمواجهة قدما، وبهذا يمكن اعتبار صورة الأمّ الكنفانيّة حاملة لأوجه متعدّدة انطلقت من الواقع، وتألقت في سماء السّرد والإبداع الأدبي.

هوامش:

[1] صلاح الدّين عبد التّواب: الصّورة الأدبيّة في القرآن الكريم، الشّركة المصريّة العالمية للنّشر لونجمان، مصر، ط1، 1995، ص09

[2] يوسف الإدريسي: التّخييل والشّعر، حفريّات في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، دار النشر، مقاربات، ط1، 2008، ص 15.

[3] صلاح فضل: أشكال التّخيّل من فتات الأدب والنّقد، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لونجمان، ط1، 1996، المقدّمة.

[4] المرجع نفسه، المقدّمة.

[5] حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينيّة (1965- 1985)، دراسة، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، 1998، ص16.

[6] عبد الغني بن الشّيخ: التّخييل الرّوائي وخدع التّمويه السّردي، مجلة الآداب، ع 10، ص151.

[7] المرجع نفسه، ص153.

[8] المرجع نفسه، ص153.

[9] المرجع نفسه، ص154.

[10] المرجع نفسه، ص168.

[11] عبد الله محمد الغذامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/لبنان، ط3، 2006، ص08.

[12] بثينة شعبان: مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1999، ص23.

[13] حسان رشاد الشّامي: المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص 07.

[14] حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة، بحث في نماذج مختارة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ط1، 2002، ص 35.

[15] المرجع نفسه، ص46.

[16] المرجع نفسه، ص46.

[17] محمود عبد الله تهامي: الأمّ في الأدب العربي.. البديل النّاجح وشجاعة الرّجال، 21 مارس 2018 https://www.albawabah news.com 24/06/2022 à17 :52h

[18] صالح مفقودة: المرأة في الرّواية الجزائريّة، منشورات وزارة الثّقافة، الجزائر، ط2، 2009، ص17.

[19] عدنان علي الشّريم: الأب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2008 ، ص17.

[20] يمنى العيد: الرواية العربية، المتخيل وبنيته الفنّية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص138.

[21] صورة الأمّ في عشرة أعمال أدبيّة عربيّة وعالميّة 2016/03/21 en : 24/06/2022 à 18 :05h https://al-ain.com

[22] ألبير كامو: الغريب، تر: محمد آيت حنّا، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، ط1، 2014، ص 07.

[23] أدهم شرقاوي: الأمّ في أدب غسان كنفاني، دار كلمات للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط1، 2014، ص09.

[24] المرجع نفسه، ص09.

[25] المرجع نفسه، ص08.

[26] حسان رشاد الشّامي: المرأة في الرّواية الفلسطينيّة (1965-1985)، مرجع سابق، ص21.

[27] حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص62.

[28] المرجع نفسه، ص62.

[29] أدهم شرقاوي: الأم في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص08.
[30] غسان كنفاني: الآثار الكاملة، الرّوايات، م1، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، ط1، 1972، ص241.
[31] المصدر نفسه، ص242.
[32] عدنان كنفاني: صفحات كانت مطويّة، ناشري، كتاب إلكتروني، سبتمبر 2003، ص03.
[33] المرجع نفسه، ص06.
[34] أدهم شرقاوي: الأمّ في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص19.
[35] حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص78، 79.
[36] المرجع نفسه، ص79.
[37] أدهم شرقاوي: الأمّ في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص21..
[38] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص246.
[39] المصدر نفسه، ص259.
[40] المصدر نفسه، ص260.
[41] المصدر نفسه، ص263.
[42] المصدر نفسه، ص264.
[43] المصدر نفسه، ص281.
[44] المصدر نفسه، ص282.
[45] المصدر نفسه، ص285.
[46] المصدر نفسه، ص286.
[47] المصدر نفسه، ص286.
[48] حسان رشاد الشّامي: المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص 27.
[49] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص264.
[50] أدهم شرقاوي: الأمّ في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص30.
[51] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص249.
[52] المصدر نفسه، ص250.
[53] أدهم شرقاوي: الأم في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص56.
[54] حسان رشاد الشّامي: المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص94.
[55] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص259.
[56] المصدر نفسه، ص270.
[57] المصدر نفسه، ص270.

[58] المصدر نفسه، ص297.

[59] أدهم شرقاوي،: الأمّ في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص69.

[60] حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة، مرجع سابق، ص: 79.

[61] المرجع نفسه، ص81.

[62] المرجع نفسه، ص84.

[63] المرجع نفسه، ص84.

[64] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص252.

[65] أدهم شرقاوي: الأمّ في أدب غسان كنفاني، مرجع سابق، ص100.

[66] غسان كنفاني: الأعمال الكاملة، ص 296.

[67] المصدر نفسه، ص269.

[68] المصدر نفسه، ص336.

[69] المصدر نفسه، ص336.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1-غسان كنفاني، الآثار الكاملة، الرّوايات، م1، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، ط1، 1972.

المراجع:

1-أدهم شرقاوي، الأمّ في أدب غسان كنفاني، دار كلمات للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط1، 2014.

2-بثينة شعبان، مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1999.

3-حسين مناصرة، المرأة وعلاقتها بالآخر في الرّواية العربيّة الفلسطينيّة، بحث في نماذج مختارة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ط1، 2002.

4-حسان رشاد الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينيّة (1965- 1985)، دراسة، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، 1998.

5-صالح مفقودة، المرأة في الرّواية الجزائريّة، منشورات وزارة الثّقافة، الجزائر، ط2، 2009.

6-صلاح الدّين عبد التّواب، الصّورة الأدبيّة في القرآن الكريم، الشّركة المصريّة العالمية للنّشر لونجمان، مصر، ط1، 1995.

7-صلاح فضل، أشكال التّخيّل من فتات الأدب والنّقد، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لونجمان، ط1، 1996.

8-عبد الله محمد الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/لبنان، ط3، 2006.

9-عدنان علي الشّريم، الأب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2008.

10-يمنى العيد، الرواية العربية، المتخيل وبنيته الفنّية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

11-يوسف الإدريسي، التّخييل والشّعر، حفريّات في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، دار النشر، مقاربات، ط1، 2008.
12-عدنان كنفاني، صفحات كانت مطويّة، ناشري، كتاب إلكتروني، سبتمبر 2003.
13-ألبير كامو، الغريب، تر: محمد آيت حنّا، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، ط1، 2014.

المجلات:

1-عبد الغني بن الشّيخ، التّخييل الرّوائي وخدع التّمويه السّردي، مجلة الآداب، ع 10.

مواقع الأنترنيت:

1-محمود عبد الله تهامي، الأمّ في الأدب العربي.. البديل النّاجح وشجاعة الرّجال، 21 مارس 2018 https://www.albawabah news.com
2-صورة الأمّ في عشرة أعمال أدبيّة عربيّة وعالميّة 2016 /03/21 https://al-ain.com